المكتبة الحديثة للأطفال

محمد عطية الابراشي



مثال الرحمة

وقصص أخرى

دار المعارف بمصر

١٢

المكتبة الحديثة للأطفال

مِثالُ الرَّحْمَةِ
وقصصٌ أُخْرَى

بقلم
محمد عطية الأبراشي
عميد مفتشي اللغة العربية سابقاً

الطبعة السابعة منقحة ومزيدة

دار المعارف بمصر

١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ المرسَلين ، سيدِنا محمد وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين . (وبعدُ) ؛ فيسرُّني أن أقدمَ للنشء : « المكتبة الحديثة للأطفال » وهى صفوةٌ من القصصِ الشرقيةِ والغربيةِ ، راعيتُ فيها ميولِ الأطفالِ ورَغباتِهم ، وتفكيرَهم وخيالَهم

وحرْصًا منى على أن أضعَ أمامَهم المثل الكاملَ للحياةِ الكاملة ، فى صورة ملائمة للطفولة ومَداركِها ، تجتذب الطفل وتستهويه — عانيت بعضَ الجهدِ فى اختيارها ، حتى لقد كنت أقرأ الكتاب القصصىَّ فلا أتخيرُ منه — مع كثرةِ قصصِه — إلا قصةً واحدةً ؛ ولهذا سيجدُ أبناؤنا وبناتُنا فى هذه المجموعة ألوانًا من القِصَصِ الخياليةِ ، والواقعية ، والاجتماعيةِ ، والخلقيةِ ، والعلمية ، والأدبيَّة .

إن كلَّ ما فى « المكتبة الحديثة للأطفال » يتصل بحياةِ الطفل كلَّ الاتصال ؛ ففيها يجدُ ما يرَغّبهُ فى القراءة ، ويشوقُه إلى الاستمرار فيها ؛ فما إن يبدأ أول قصة حتى يَستهويَه وضوحُها ، وسهولةُ لغتها ،

وجمالُ أسلوبِها، وحرصُها على المثُلِ العليا فى النواحىِ الخلقيةِ والاجتماعيةِ والعاطفية ؛ فيمضىَ إلى نهايتها ، ومن هذه إلى تلك حتى ينتهىَ منها مشتاقًا إلى مُعاوَدَة قراءتِها .

وَقَدْ راعيتُ فيها سهولةَ اللغةِ ، وجمالَ الأسلوبِ ، وشرحتُ من الكلمات اللغوية ماصَعُب ، ووَضَّحتُ بعضَ القصصِ بصورٍ واضحةٍ ؛ لتكونَ عونًا على فهمِ هذه القصص ، ويكتسبَ منها الطفلُ دقة الملاحظة وجمالَ الذوق .

وأعتقد أن الآباءَ والأمهاتِ ، والمدرسين والمدرساتِ ، سيجدون فى هذه المجموعةِ المنتقاةِ خيرَ ما يُهدُون إلى أبنائِهم وبناتِهم من ثروة تُغذى عقلَ الطفل ، وتنمى خياله ، وتسمو بروحِه ، وتهذبُ وجدانَه وتربى حواسَّه ، ويجد فى قراءتِها لذةً وسروراً يشعُر بهما الكبارُ أنفسُهم حينَ يقرؤونَها .

وأرجو أن أكون بهذهِ «المكتبة» قد قمتُ بواجبى الجيل الجديد ، فى هذا العَهدِ السَّعيد ، فى الجمهورية العربية المتحدة ، والشرقِ العربى .

أسأل اللهَ التوفيقَ ، وتحقيقَ الآمالِ ، إنه سميعٌ مجيب .

محمد عطية الابراشى

الْقِصة الأُولى

مِثالُ الرَّحمةِ.

(١)

دُقَّ البابُ فَخَرَجَتْ سَيِّدةٌ عجوزٌ عابِسَةُ الوجهِ لترى مَن الطَّارِقُ الَّذِى يَدُقُّ عَلَى البابِ ، وقَد اعْتادَت مِنْ قَبْلُ أَلَّا تُساعِدَ مَن يَطلبُ مِنها المُساعَدَةَ .

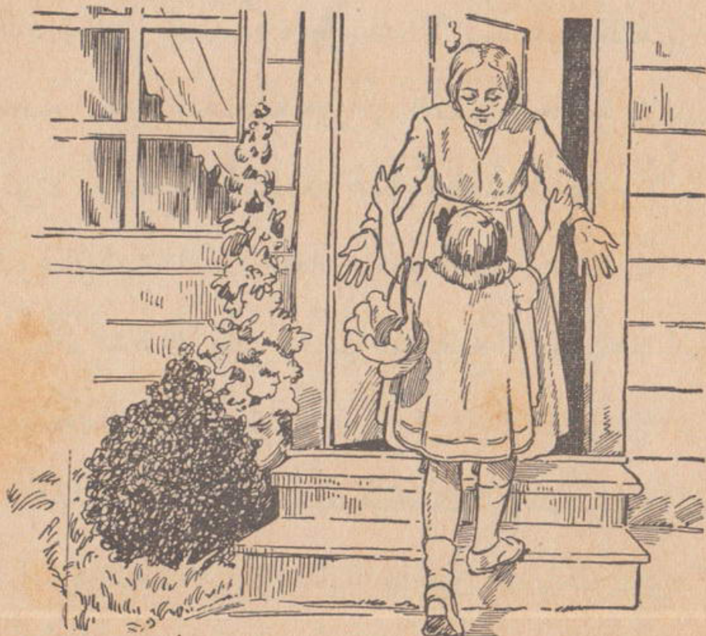
فَرَأَتْ بالبابِ فَتاةً تَبلُغُ من العُمْرِ عَشْرَ سنوات شَاحِبَةَ اللونِ صَفراءَ ، هَزيلَةَ الجسمِ ، مَلابِسُها رَثَّةٌ مُمَزَّقَة ، ووجهُها مُغْبَرٌّ ، تلبَسُ حِذاءً قديماً ، وتلُوحُ عَليها آثارُ الجهدِ والعَناءِ والتَّعَبِ وسُوءِ الحالِ ، فخاطَبَتْها السَّيِّدةُ بصَوت فيه مَعْنَى الْحُبِّ والعَطفِ والحنان ، وقد نسِيتْ ما اعتادَته من رَدِّ مَنْ يسأَلها أَو يقصدها ، وسأَلَتها : هَلْ أَنتِ آلِيسُ ؟ مِن أَيْنَ أَتَيْتِ الانَ يا بِنْتى ؟

كانتْ تِلكَ العَجوزُ عمةً للفتاةِ ، وزَوْجاً لأَحدِ الأَغنياءِ المُثقَّفين المتعلِّمينَ ، فأَدخلَتها الدَّارَ ، وأَغْلَقَتِ البابَ وهيَ تكَرِّرُ سؤالها : من أَينَ أَتيتِ يا آليسُ ؟

فأَجابتْ : عمتى العزيزة ! لقدْ أَتيْتُ لأُخبرَكِ بكلِّ شيءٍ . فأَجْلَسَتها عمَّتُها ، ثم سَأَلتها ثَانيةً : كيفَ حَضرْتِ وحْدَكِ ؟ إنَّ ذاكَ لشيءٌ عُجابٌ ، تَعالَىْ واجْلِسِى وأَخبرينى بما لَدَيْكِ وما عِندكِ .

فقالتْ آليسُ : عَمَّتى العزِيزة ! إنَّ أَبِى قد عَجز عن كَسْبِ ما نَسُدُّ به عَوَزَنا وحاجَتنا ، ولم يكسِبْ شَيْئاً مُنذُ عِدَّةِ أَشهرٍ ، فهو يَصِلُ ليلَهُ بنَهارِه ، وَنَهارَهُ بلَيْلِه ، يَعْملُ ويكتُبُ مَقالات ورسائل ، فى الأَدَبِ والأَخلاقِ والاِجتماعِ ، يتحدَّثُ فيها عن العالمِ وما فيه من شُرور وآثامٍ ، وعُيوبٍ وآلامٍ ، ولكنَّه لا يَجِدُ من ورائها شيئاً ، فقُرَّاؤُه قليلونُ ، والصُّحفُ والمجَلاتُ تَمُنُّ عليه بقَبولِ هٰذهِ المَقالاتِ ، ولا تُعطِيه شَيئاً

من الأَجرِ ، وتخُصُّ نَفسَها بكلِّ رِبْحٍ ، وتَحْرِمُ هَذا الكاتبَ الأَلْمَعِيَّ القَديرَ الانتفاعَ بمجهودِهِ العقْلِيِّ ، ولا تُشَجِّعُه بشيءٍ من المالِ .



العمة تستقبل ابنة أخيها بالباب

أَما أُمِّي فَقدْ بَلَغت من الوَهْنِ والضَّعْفِ مَبْلَغاً كبيرًا ، وقعَدَ بها المرَضُ والهَمُّ والقَلَقُ ، ومَع هَذَا فهِيَ تَعمَلُ ، وتُكلِّفُ نَفَسها كثِيرًا من المَشقَّةِ ، في وَقت

هىَ فيه فى حاجة إلَى الرَّاحَةِ وهُدوءِ البَال ، وتُحاولُ أَن تَقومَ بما تَستطيعُ مِن فُروض البَيتِ والأُسرة . فالحيَاةُ صَعْبَةٌ ، والْحَالُ ضَنْكٌ ، ووسائلُ العَيْشِ فى بَيتِنا تَكادُ تكونُ مَعدومةً ، ولِسانى لا يَستطيعُ التَّعبيرَ عمَّا تُعانيهِ الأُسرةُ وتُقاسِيهِ مِن أَلَمِ الفَقْرِ والحاجةِ والشَّقاءِ . وإنِّى لا أَستطيعُ المكثَ بغيرِ عَمل أُساعِدُ به إخْوتى وأُمِّى وأَبِى .

فأَسِفَتِ العَمةُ لحالِ أُسرةِ أَخيها ، وقالتْ : إنِّى أَظنُّ أَنَّ فتاةً فى مِثْلِ سِنِّكِ تَستطيعُ أَن تُساعدَ أُمَّها ، ولو بالعَمَلِ فى البيتِ .

فقالت آليسُ : لقد سَاعَدْتُها بكلِّ ما فى قُوَّتى فى إدارةِ البيتِ ، والعنايةِ بإخوتى ، ولكنَّ أَبى كان يُفَضِّلُ أَن أَهَبَ وَقتى لمُساعدتهِ فى كِتابةِ المَقالات ونَقْلِها ، وإرسالِ نُسخٍ منها إلَى الصُّحُفِ والمجلاتِ . ولذا تَرَيْنَنى أَعملُ معَه طولَ النَّهارِ فى تدوينِ مَقالاتِه ، وتَرتيبِ رَسائلِه وأَوراقِه . وهو يرْجُو أَن يُوقِظَ البِلادَ

بتِلكَ المَقالاتِ الضَّافيةِ الطَّويلةِ ، ويُنقِذَ العالَم ممَّا هو فيه مِن النقائصِ والعيوبِ الاجتماعية .

فقالتْ عَمتُها : لقد فهِمتُ الآن يابنتى . إنه فى الوقتِ الذى يُفكِّرُ فيه فى إيقاظ البلادِ ، وإنقاذِ العالَم يَدَعُ (يَترُكُ) زَوْجَهُ وأَولادَه يَتَضَوَّرون جُوعاً ، حتى أَصبَحُوا لا يجدونَ من الطَّعام ما يكفيهم .

فقالتْ آليسُ : هَذا ما حَدثَ يا عَمَّتى العزيزة ! ولقد احتَملتُ وصَبرْت كثيرًا ، ولم أَسْتطِعْ أَن أَرى أُمى وإخوتى جِياعاً ، وأَمكُثَ فى البَيْتِ ، فَصمَّمْتُ عَلَى المجىءِ إليكِ لأُخبِرَكِ الخبرَ ، وقَبلَ سَفرى قَبَّلتُ أُمى وإخوَتى ، وأَوْصَيْتُهم بالصَّبرِ والشجاعةِ ، ثم وَدَّعتُهمْ وأَتيْتُ ، وهُم عَلَى عِلمٍ بحضورى إليك. فسأَلَتْها العَمةُ : وهل قَطَعْتِ هذا الطريقَ كلَّه مَشياً عَلَى قَدَمَيكِ؟

فقالتْ : لا يا عمَّتى لقد كان المُسافرونَ إلى (بوسْتونَ) يُظهِرون العَطفَ نحوى ، فكنتُ أَركَبُ

مَعهم حيناً ، وأَسيرُ عَلَى قَدَمىّ أَحياناً .

قالت العمَّة : وأَنتِ الآنَ فى (بُوستُون) ، فماذا تريدينَ أَن تَفْعلى ؟

فأَجابت آليسُ : إِذا أَذِنتِ لى بالإِقامة معكِ قمتُ بخدمتِكِ لأُساعدَ أُمى المسكينةَ ، وإِخوتى البائسين وفى أَوقاتِ فراغى سأَجْلسُ للقراءةِ والاستذكار ؛ حتى أَسْتطيع أَن أَساعدَهم حقًّا حينما أَكبرُ ، وسَأَبذُلُ كلَّ جُهدى فى إِرضائكِ يا عمَّتى .

فقالتِ العمَّةُ : ما أَشجعَكِ من فتاةٍ ! وما أَطهرَ قلبكِ ! وما أَكثرَ عطفَكِ ! سأُحققُ لكِ رغبتكِ ، وغداً تبدئين عملَكِ ودرسَك .

بَدَأَت آليسُ تعيشُ فى بَيتِ عمَّتها ، وقد قاست مرارةَ الحياةِ فى طفولتِها الأُولى ، فلم تعْرِفْ معنَى اللعِب الذى يتمتعُ به الأَطفالُ فى صِغرِهم ، ولم تتذكَّرْ غَيرَ العملِ والإِجهاد والتعبِ ، وقلَقِ البال ، والجوعِ

والفقر ،ولكنها كانت شُجاعةً إلى حدٍّ كبير ، حتى فازَت بإعجاب عَمتها ، ولم يَكنْ من السَّهلِ أَن تُعْجَبَ بأَحد.

كانت آلِيسُ تعمَلُ نهارًا فى خِدمةِ عَمَّتها ، وتُرْسِل كلَّ ما تربَحُه إلى أَبيها ؛ لِتُخَفِّفَ عن أُسرتها آلامَ الفَقر والحاجةِ ، وتَسْهَرُ ليلاً لتَستذكرَ دُروسَها فى البَيت ،حتَّى استطاعَت أَن تَعرِفَ فى زَمنٍ وَجيزٍ (قليل) أَكثرَ مِمَّا عَرفَتْه صديقاتُها اللاتِى ذَهَبنَ إلى المدارسِ ، ودرَسْنَ دراسةً مُنظَّمةً فى المدارسِ الابتدائيةِ والثّانوية .

وحينما بلغَتْ من العُمْرِ خَمْسَ عشرةَ سَنَةً قالتْ لِعمَّتِها : سأَعودُ غدًا يا عمَّتى إلى قَرْيَتى ، وسَأَفْتَحُ مدرسةً أُعَلِّمُ فيها صغَارَ الأَطفالِ .

فقالتِ العمة : إنك لا تزالين صغيرةً يا بُنَيَّتى ، ولا تَسْتطيعينَ القيامَ بهذا العَملِ الكبيرِ .ولا شَكَّ فى أَنَّ تفكيرَكِ سَليمٌ ، ورأيَكِ سَديدٌ ،ولن تَنْقُصَى فى إدراكِك (فَهمِكِ) عن الكبارِ ، وَلكنَّ الآباءَ لن يُرسِلُوا أَطفالَهم إلى

مدرسة تُدِيرُها وتَقومُ بالتَّعليمِ فيها فتاةٌ صغيرةٌ مثلُكِ .

فقالَتْ آلِيسُ : سَتَرَيْنَ يا عَمَّتى ماذا تَستطيعُ تلك الفتَاةُ الصغيرةُ أَن تَفعلَ .

سمَحت لها عَمَّتُها بالعَوْدَةِ إلى بَيْت أُسرتها ، فَرجعَت إلى أُمِّها وأَبيها وإِخْوَتها ، وقد ارتدَتْ مَلابسَ طويلةً ، وبدَت (وظَهرتْ) عليها أَمارات الْهَيْبَةِ والوَقار وقد رَتَّبتْ شَعرَها تَرتيباً حَسَناً ، مُتَشَبِّهةً فيه بِكبار السَّيداتِ ، وأَخذَت تَجوبُ أَرجاءَ القَريةِ ، وتَدْخلُ المنازِلَ تُرغِّبُ الآباءَ فى إرسالِ أبنائهم إلى مَدْرَستِها .

فاحتَرَمها كلُّ مَن رآها ، وأَجابَ الاباءُ دَعْوَتَها ، ولم يُفكِّرْ أَحَدٌ من الناسِ فى أَنها فتاةٌ صغيرةٌ لا تستطيعُ أَن تَضْطلِعَ بأَعْباءِ هذا العَملِ الْخَطيرِ .

وقَدْ فُتِحت المدرَسَةُ ، وأَقبلَ الأَطفالُ علَيها كلَّ الإقبال ، وسرعانَ ما أَحَبُّوا مُعَلِّمَتَهم ، وتَجَلَّى فيهم ما بَذَلَتْه من مجهود فى تَعليمِهم ، وظهرَ أَثرُها فى



العمة توصي ابنة أخيها عند مغادرتها المنزل

تَقَدُّمِهِم والنُّهوضِ بهم ، فأُعْجِبَ الآباءُ بالمدرسَةِ ونَتيجَتِها ، ولٰكنَّها شَعَرت فى نَفْسِها بأَنَّها فى حاجة إلى أَن تتعلَّمَ أكثر مما تعلّمتْ ، حتّى تستطيعَ أَن تَصِلَ إلى المثل الكاملِ الذى تَنْشُدُهُ فى المدرسةِ والتَّعليمِ فرجَعَت إلى إحدَى الكلياتِ الأَمريكيةِ لتُكَمِّلَ دراستَها وتُعِدَّ نَفسها إعدادًا تامًّا لمِهنَةِ التَّعليم .

وحينما بلَغَتْ من العُمر عشرين سَنةً أَتَمَّتْ دِراستَها وأعدَّتْ نَفَسها لمهْنَة التَّدرِيس ، وأَنشأَت لها مدرسةً فى حيٍّ من الأَحياءِ الوطَنيَّةِ ، وأَدَارتها أَحسنَ إدارة ، فَحَسُنَت نتائجها ، وذَاعَ صِيتُها ، واشتَهر أَمْرها ، وأَقبلَتْ إليها التلميذاتُ من كلِّ جهة . وكانتْ إذا رأَتْ بَعضَ أَبناءِ الفُقراءِ فى القُرَى مُهْمَلين فى الطُّرُقِ رَثَتْ لِحَالِهم ، وقامَتْ بمُساعدتهم وتَعلِيمهم .

وقَدْ كانت آليسُ تَسْتيْقِظُ فى الفَجْرِ مَملوءَةً بالنَّشاطِ والحيَاةِ وحُبِّ العَملِ : تَقومُ بالتَّعْليمِ فى مَدرستِها نهارًا خَيْرَ قيامٍ ، وتُعْنَى فى أَوقاتِ فَراغِها بعمَّتِها العِنايةَ

التَّامةَ ؛ فَقَدْ كبِرت سنُّها ، وأَقْعَدها الضَّعْفُ . وفى الوَقْتِ نَفسِه كانت تهتمُّ بأَخَوَيْها الصَّغيرَيْنَ اللَّذين جاءتْ بهما مَعها لِتربْيتَهما والإنفاق عَليهما . وليسَ من السَّهلِ عَلَى أَىِّ فَتاة مَهما أُوتِيَتْ من القوَّةِ والصِّحة أَن تَنهَضَ بتلك الأَعمال الجليلة الَّتى قامتْ بها تلكَ الفتَاةُ ؛ فقد استَطاعَتْ بما وُهبتْ مِنْ إرادة قَويةٍ ، وعَزيمة صادقةٍ ، وحُبٍّ للخَيْرِ أَن تُديرَ مَدرَسَتها خيرَ إدارةٍ ، وتَقومَ بتربيةِ أَخَوَيْها أَحسنَ تربيةٍ ، وتُعْنَى بعمَّتِها العَجوز ، وتساعِدَ أُسرتَها الفَقيرةَ فى الرِّيفِ ، وتَقومَ بتعَليمِ الفُقراءِ بالمجَّانِ ، وتَسْتمرَّ فى بحْثِها وَاطِّلاعِها فى أَوقاتِ فَراغِها ، وتُساعدَ مَنْ يَحتَاجُ إلَى المساعدةِ .

وأَخيرًا ماتَتْ أُمُّها وأَبوها ثم عَمَّتُها ، وقد كبِرَ أَخَواها حتَّى استطاعَا الاعتمادَ عَلَى أَنْفُسِهما فى شئون الحياةِ ، وكانَ أَحدُهما طبيباً ، والآخرُ مُهندِساً . وبهذا أَدَّتْ رسَالتها الأُولَى فى الحياةِ . وسنَذْكُرُ لكَ رسالتَها الثَّانيةَ فى القِصَّةِ التاليةِ .

القِصَّةُ الثَّانيَة

شَجاعَةُ آليسَ ودِفاعُها عَن الإنسانيَّة

(٢)

بَلغَت آليسُ الآنَ مِنَ العُمرِ خَمساً وثَلاثين سنةً ، فاستقبلَتْ عمَلًا إنسانيًّا جَليلًا وَهَبَتْ مِنْ أَجلِه حَياتَها ، وقضَتْ فيه بَقِيَّةَ عُمْرِها تُفكِّرُ فى المجتَمِع ، وتَعملُ لإصلاحِه ، والتَّرْفيه عن أَهلِه ، وقد آتاها اللهُ مِنَ الصَّبْرِ والرَّويَّةِ ، والعَطْفِ والشفَقَةِ ، وحُبِّ الإنسانية والتّفكيرِ فيها – ما حَقَّق رَغبتَها ؛ فَقد سَمِعَتْ ذاتَ يَوْمٍ أُناساً يتحدَّثون عَن سوءِ المُعاملةِ الَّتى يَلقاها المَرْضَى فى المُستشفَيات ؛ فالمَريضُ إذا مَرِضَ فى الرِّيفِ رُبَّما لا يَجِدُ مَنْ يُعْنَى بعلاجِه فى القَريةِ ، فيُفكرُ فى السَّفرِ إلى المدينَةِ ليعالِجَ نَفسَه فى مُستشفَياتِها وكيفَ يُسافرُ إلَى المدينةِ وهُوَ لا يَملِكُ مِن المال أُجرةَ

القِطار ؟ إنّه يَسيرُ عَلَى الأَقدامِ حتى يَصِلَ إليها ، فيَذهبَ إلى المستشفى ، فيجدَ كلَّ صُعوبةٍ فى الدخولِ . وقد يَقضى أياماً وهو ينتظِرُ ببابِ المستشفى يئنّ من الآلامِ . فإذا سُمح له بالدُّخول ، وبُدِئَ بالعِلاج وَجدَ مُعاملةً قاسيَةً من الممرِّضينَ والممرِّضات اللائى قد يتفكهْن ويَتَسَلَّينَ بمريض يجودُ بأنفاسِه الأَخيرة . وربما أُخرجَ من المستشفى قبل أَن يتمَّ شِفاؤُه ، وقَبْل أَن تستطيعَ رِجْلاه أن تحملاه ، وقد يَقْضى نَحبَهُ وهو بباب المستشفى ، قبلَ أَن يُسمَحَ له بالدخول ، فيموتَ فى عُرضِ الطريق وقد أَثقله المرضُ والفَقرُ .

كان ذٰلك كلُّه فى القَرْن التَّاسعَ عَشَرَ ، أَمَّا اليومَ فقدْ أَصبحتْ وَسائلُ العِلاجِ مُيَسَّرَةً لكلِّ مريض .

سَمِعت آليسُ ذٰلك ، فتألَّمت لهٰؤُلاءِ الْمَرْضَى من الفُقراءِ ، ومِنْ هُنَا أَخذَتْ تُفكِّرُ فى أَمرِهم ، وأَكَّدت الْعَزْمَ عَلَى أَن تَدْرُسَ شُئونَهم ، وتَفعلَ ما تستطيعُ فى

سَبيلِهم . فقابلَتْ وَزيرَ الصحةِ ، وٱستأْذَنتْ منه فى أَن يَسْمَحَ لها بزيارة المستَشفياتِ فى جَميعِ أَنحاءِ البلاد ، فَسَمحَ لها ، وقامَتْ برحْلات إلى كَثير من المدُنِ فى الولاياتِ المختلفة لِزيارةِ المستشفيات ، وبَحثِ حالِها عن كَثَبٍ وقُرب . وقد وجَدتْ ترحيباً فى كُلِّ مُستَشْفى ، ووَجَدتْ صُدورا فَسيحةً لِلقائِها وتكريمها من الأَطبَّاءِ ؛ ففُتِحَت لها الأَبوابُ ، وأَحاط بها الأَطبَّاءُ كأَنها رسُولُ الرَّحمةِ هَبَطَ من السَّماءِ ليُزِيلَ عَنْ تلك القُلوبِ البائسةِ ما أَلَمَّ بها من شَقاءٍ .

وماذا تستطيعُ ٱمرأَةٌ رقيقةُ الإحساسِ ، ضَعيفةُ الصِّحةِ ، أَن تفعل لتُنْقِذَ هؤُلاءِ التُّعساءِ مِن المرضَى المنتظِرين ببابِ كُلِّ مُستشفى ؟ وكَيْف يقبَلُهم المستشفى والأَسرَّةُ محدودةٌ ، والأَمكنةُ ضيِّقةٌ ، لا تَسَعُ هٰذا العددَ مِن المرضَى ؟

لَقد قامَتْ بواجبِها خيْرَ قيامٍ ، وأَدَّتْ للإنسانيةِ



آليس وهى تزور المرضى فى المستشفى لتدرس شئونهم

المعذَّبةِ أَجَلَّ الْخَدماتِ ، ووَاسَتِ المرضَى ، وأَخَذَتْ تَصِفُ فى الصُّحُفِ ما شاهدَتْ مِنْ كَثْرَةِ المرضَى ، وسُوءِ مُعامَلةِ الممرِّضاتِ لَهُمْ ، وقلَّةِ العِناية بهمْ . وقَدَّمَتْ إلى وَزيرِ الصِّحَّةِ رسالةً تَصفُ له ما شاهدَت ، وقد أَطنبَتْ فى الوصفِ ، وأَطالتْ فى الذِّكرِ ، فتكلَّمت عن نساءٍ مهمَلات ، وَأَطفالٍ مُهْمَلين ، ورجالٍ مُعذَّبينَ ، قبل دُخولِ المستشفى وبعد دخولِه .

تألَّم المجتَمعُ الأَمريكىُّ فى القرن التاسعَ عشرَ ، حِينما سمِع تلكَ القِصةَ المؤْلمَةَ ، وهَبَّ مديرو المستشفيات يدفَعون عن أَنفسِهم تلك التُّهم ، ويُبرِّئون أَشخاصَهمْ منها ، فادّعَوْا أَن هذا افتراءٌ وكَذبٌ ، وليس القصدُ به إلَّا التشهيرَ والتشنيعَ . والواقعُ أَنه حقٌّ لا مِرْيةَ ولا شكَّ فيه ؛ فلا عجبَ إِذا اقتنع الشعبُ بتلك الحقيقةِ المرَّةِ ، واقتنعتِ الحكومةُ ، فأَصدرت تعليماتٍ لإصلاح هذه العُيوب ، وحُسن مُعاملةِ المرضَى من الفقَراء ،

وفَتحت الاعتماداتِ الماليةَ للإكثار من المستشفياتِ ، ومُعالجةِ الفقراءِ فى العواصم والمُدن ، وَفِى القُرَى الريفيَّة.

وبهذا نجَحتْ آليسُ فى العمَل لإصلاحِ المستشفيات والإكثارِ منها لمعالجةِ الفقراءِ فى جميعِ أنحاءِ البلادِ .

وَقد سَمِعَتْ آليسُ عن الملاجئ وَما يلاقيه الأَطفال اليتامى بها من العذاب ، وسُوءِ المعاملة ، وقلَّة الطعام ، ورداءَةِ الغِذاءِ وإهمالِ القائمين بشئونِ الملاجئ لهؤلاءِ الأَطفالِ . فقابَلت وَزيرَ الشئونِ الاجتماعيةِ ، وأَظهرَت له رغبتَها فى زيارةِ الملاجئ ، فسمَح لها بزيارتِها متى شاءَتْ ؛ فأَخذَت تجوبُ البلادَ ، وتنتقِلُ من مدينةٍ إلى أُخرى ، لرؤية الملاجئ ، وبَحْث حالِها ، فوجدَتها كلَّها مَظالم ، فالمعاملةُ قاسيةٌ ، والإدارةُ سَيئةٌ ، والأَطفال يشكُون البردَ والْجوعَ والظلمَ ، فصممَّتْ على رفعِ مُستواها ، والعَمل لإسعاد مَن بها ، ولكن من أَين تأْتى بالمالِ للنهوض بتلك الملاجئ وَالعمل لإصلاحِها ؟

لقد فكَّرت فى إنشاءِ جماعاتٍ خَيرية تعملُ لجمعِ المالِ للملاجئ . وتتكوَّنُ كلُّ جماعةٍ من رئيسٍ وأَمينِ صُندوق ، وكاتبٍ ، وأَعضاء للقيامِ بأُمورِ الملجأ . والمفروضُ فى الجماعةِ طبعاً الأَمانة والإِخلاصُ ، واختارت أَيامَ الأَحدِ والأَسواقِ لجمع الإعاناتِ ؛ بأَن تَكتبَ الجماعةُ لعدد مُعيَّنٍ من المُحِبات لعمَلِ الخير ، ترجوهُنَّ التبرُّع بمساعَدتها بالمجىءِ فى يومٍ كَذا . للوقوفِ فى مكان خاصٍّ ، وجمع التبرعات مِن المحسنين والمحسنات ، ببيعِ بعضِ العلامات والإِشارات الخاصَّةِ لهم ، فيتبرّعُ كلُّ فرد بما تجودُ به نفسُه . وتُكرَّرُ عملية التبرعاتِ من حين لآخَرَ ، فإذا تكرَّرَ الجمعُ كلَّ أُسبوعين أَو شهر أَمكنَ أَن يُجْمعَ من المال فى كل بلدة أَومَدينةٍ ما يكفى إنشاءَ ملجأ يقومُ بتعليمِ اللُّقطاءِ واليَتامى من الأَطفال ، ويُؤْويهم حَيثُ لا مأْوى لهم ، حتى يُقَضى عَلَى جميع السائلين من الفقراءِ والعَجَزَة .



آليس وهى تزور أطفال الملجأ لتدرس حالهم

وَقد أَخَذت تكتبُ إلى بعضِ الأَغنياءِ من أَصحاب (الملايين) تَسْتَدِرُّ عَطفَهم ، وترجو مَعونتَهم . وزارتْ مرةً رجُلًا من الأَثرياءِ الأَغنياءِ لم يَسبِقْ له أَن تَبرَّع لعمل خيريٍّ ، فأَخبرَتْه بحال هؤُلاءِ الأَطفال ، وما يُقاسونه فى تلك المَلاجىءِ أَو السُّجونِ ووَصَفتْ له ما يُعانونَه من شقاءٍ وتَعْس ، فأَصغَى إِليها كلَّ الإِصغاءِ ، حتَّى أَتَمَّتْ وَصْفَها ثُمَّ سأَلَها : وماذا تُريدينَ مِنِّى أَن أَفعَلَ يا سيِّدتى ؟

فأَجابَتْ : إِنِّى أَرجو أَن تتَبرَّعَ بخمسةِ آلافٍ من الجنيهاتِ لتَوسيع المَلجأ الذى فى تلك المدينة ، فَخَفَقَ قلبُه للإِنسانيَّة ، وقال سَأُحقِّقُ لكِ ما ترغَبين ، وَوَسَّعَ الملجأَ ، وأَبَى وَامْتَنَعَ أَن يُسَمَّى باسمِه تخليدًا لذِكراه ، ليكونَ عملُهُ لله ، وفى سَبيل الله .

وبعد أَن أَتَمَّتْ عَملَها فى إِصلاح الملاجِىءِ والإِكثار منها سَمِعَتْ ما يلاقاهُ السَّجينُ فى سِجْنِه من

فَظاظَة وقَسْوة وشدَّةٍ تَقْشَعِرُّ لها الأَبدانُ .

فَطَلبت إلى وزير الداخليةِ أَن يَسْمَحَ لها بزيارة السُّجونِ ، فلم يَبْخَلْ عَلَيْها بتلك الزيارة . فَزارَت تلكَ السُّجون ، وشَحذَتْ يَراعَها وقَلَمَها فى تسْطيرِ مَقالات إلى الصُّحُف ، وكتابةِ رَسائلَ إلى أَصْحَابِ النُّفوذِ فى الولايات المتَّحدة بأَمريكا تُعَبِّرُ بما أُوتيَتْ من بيَان وبلاغة عَنْ حَالِ هؤُلاءِ المَسجُونين ، مِمَّن نَكَبَهمُ الدهرُ ، وغَيَّرَتْهُمْ صُرُوفُ الزمان ، والتَمَسَت مِن أُولِى الأَمر المعونةَ لإِصلاحِ السجونِ ، وَتحسين حالِ البائسين مِن أَبناءِ الشَّعبِ ، وَتخفيفِ ما يُلاقونَه من شَقاء .

لم يرْضِ عمَلُها هذا بعضَ الناس الذين لا يُفكِّرُون فى الإِصلاح ، ولا يُرضيهم أَىُّ إِصلاحٍ ، لأَنهم يعيشون لأَنفِسهم ولا يُفكِّرون فى غيرِهم ، وتمنَّوْا أَن تَكُفَّ عن هذا العَملِ ، حتى لا يُكلَّفوا دَفعَ ضرائبَ جديدة لإِصلاح السجون . وَلكنها استمرَّت فى عملها

الإنسانىِّ بنفس راضية وَقلبٍ مملوءٍ بالإيمانِ ، ما دامت تعملُ للهِ والوطن والإنسانيةِ ، وتَحيا لِرَفعِ الظلمِ عن المغبونينَ وَالمظلومينَ .

وَقد كتَبت ذات مرةٍ إلى صديقة لَهَا تقولُ .

« لقد اضْطُرِرْتُ فى مُجتَمِعٍ من المُجتمعاتِ أَن أَتكلمَ ثلاثَ ساعات مُتتالية ؛ لأُقنعَ المجتمِعين بوُجُوبِ العمل للإِصلاحِ . وفى أَثناءِ الاجتماعِ أَعْلن أَحدُ الحاضرين - وكان قاسىَ القلبِ ، غليظَ الطبعِ - وَسَط ذلكَ المجتَمع بعد أَن سمِع نِقاشى ، وأَصْغى إلى حديثى مُدة ليست بالقصيرة ، أَنَّ ما يتطلَّبُه حالُ هؤلاءِ ما هو إلا تَظاهُرٌ كاذب . فلَمْ يَفُتَّ ذلكَ فى ساعِدى ، ولم يُوهِنْ قُواىَ ودفاعى ؛ بلْ وَاصلتُ الحديثَ ، فقامَ بَغتةً مِن وسَطِ المجتَمِع وقال : أَيتُها السيِّدةُ ، السلامُ عَليكِ . لقد كَفانى ما سمِعْتُ منكِ . وَاقتنَعْتُ بضرورةِ مُعاونةِ تلك الفِئةِ الضَّالَّة مِن بنِى الإنسان .

وسأُعطيك صَوْتى بمجلسِ النُّوابِ عند الاقتراعِ عَلَى إصلاح السجونِ إذا حضَرتِ إلينا ». وتكلَّمتِ كما تكلمتِ الليلَة . ولن يُعارِضَك إلَّا من قُدَّ وقُطِع قلبُه مِن الصَّخرِ . وفى وُسْع غَيْرِى من الحاضرين البقاءُ للاستماع إذا شاءُوا ، أما أَنا فمقتَنعٌ بحُسْن رَأْيِك . ووَداعاً أَيَّتها السيدةُ ! وَحينئذ تركَ الاجتماعَ وخرجَ. هذه هى الحالُ يا صديقتى » .

ولم تَفْتُرْ عزيمةُ آليس ، ولم تَضْعُفْ قواها عَن الكِفاح والْجهادِ فى سَبيلِ نُصرةِ الحقِّ ، والدِّفاعِ عَن المظلومِ . وقد أَخَذتْ تُفكِّرُ فى التقدُّم إلى مجلِس النُّوَّابِ والحكومَةِ للعَمل لِتحْسينِ حالِ المستشفياتِ والملاجى والسجونِ ، فوُفِّقَتْ فى ذلكَ إلى حدٍّ بعيد ؛ لأَنَّ كلَّ فَرْد مُؤْمنٌ بالحاجةِ إلى الإصلاحِ ، ووُجُوبِ الإصلاح ، والسُّرْعةِ فى العمل والتَّنفيذ .

وَلَمْ تَكْتَفِ آليسُ بتلكَ الرِّسالةِ ، ولكنها فكَّرتْ

فى شىءٍ آخرَ هُوَ بَحثُ حالِ مَرْضَى العقولِ فى مشافِيهم، ودِراسة شُئُونِهم، حتى تَفعلَ ما تَسْتطيعُ أَن تَفعلَ لتحسين حالِهم ، ومُعامَلَتِهم .

دَرَسَتْ حالَهُم ، فوَجدتْ أَن دورَ العلاجِ خاصَّةٌ بالأَغنياءِ . أَمَّا الفُقراءُ الَّذين فَقدوا قُواهم العقليَّةَ فلم تُنْشَأْ لَهم مُستشفيَاتٌ يَجدُون فيها العطفَ ، والمُعاملةَ الحسنةَ ، وَالعلاجَ الضَّرورِىَّ ؛ بل كانُوا يُلْقَوْنَ فى مُستشفيات شبيهة بالسجونِ ، مَملوءَة بالقَذارةِ ، يُعامَلُون فِيها معاملةَ الوُحوشِ والمُجرمِين ، ويُقيَّدُونَ بالسَّلاسلِ والأَغْلالِ ، ويَحْيَوْنَ حياةً كُلُّها عذابٌ وآلامٌ ، وشَقاءٌ وأَسْقامٌ وأَمراضٌ .

حزنَت آلِيس لمُصابهِم ، ورَثَتْ لحَالِهم ، وأَخذَت تُفكِّرُ فى أَمْرهِم ؛ لتُخَفِّفَ عَنْهُمْ شَرَّ تِلكَ الكوَارثِ النَّازلةَ بِهِمْ . فقامَت برِحْلَات إلى بَعْض المُدُنِ لزيارةِ المشافى الخَاصَّةِ بهِمْ . وحينما أَتَمَّت بَحْثَها

كَتبَتْ إلى وزارة الصِّحةِ رِسالةً تَصِفُ فيها ما رأَتْ وَما شاهَدَتْ ، مِن أَحوالِ هؤُلاءِ الأَشْقياءِ المعذَّبين ، الذى اختلَّتْ قُواهُمُ العقليّةُ ، وحُجِزُوا فى أَقفاصٍ وحظائِرَ قَذِرة ، وقَدْ وضِعت الأَغلالُ والسَّلاسِلُ فى أَعناقِهم ، وتَعَرَّتْ أَجسادُهم ، وضُرِبُوا بالعِصِىِّ ، وجُلِدُوا بالسياط كىْ يطيعوا ما يُلْقَى عَليهم مِن الأَوامِر .

وقد أَطْنبَتْ وأَكثَرتْ فى الوَصْفِ ، وأَطَالتْ فى الذِّكْرِ ، حتى تأَلَّمَ المُجتَمَعُ حينما سَمِع تلِكَ القِصَّةَ المُحزِنَةَ ، واقتَنعَ الشَّعْبُ بتلكَ الْحَقيقةِ المُرَّةِ الَّتى تُفَتِّتُ الأَكبادَ ، وتَمْلِكُ القُلوبَ ، وتَبْعَثُ الأَلَمَ والْحُزْنَ فى النفُوسِ. ففكَّرَت الوزارةُ فى إِصلاحِ حالِ هؤُلاءِ المساكينِ ، وإِنشاءِ مُستَشْفياتٍ مُريحة لهم ، والعملِ لِحُسْنِ معاملتِهم ، حتّى يَجِدُوا كلَّ عناية وراحة ، فكانَ النَّجاحُ حَليفَها ، والفَوْزُ رائِدَها .

وَاقترحَ بعضُ الأَفرادِ أَن يُسمَّى المستشفى باسمِها ،

تخليدًا لذكراها ولكنَّها أَبَتْ وَامْتَنَعَتْ عَنْ إجابَةِ رَغْبَتِهِم قائلةً : «إنِّى أَقْصِدُ بعمَلِى هٰذا وَجهَ اللّٰه ، والدِّفاعِ عَنِ الإنسانيةِ ، ولا أَنتظِرُ جَزاءً ولا شُكورًا.

وقدْ أَرَادَ آخَرُون أَن يُقِيموا لها حفْلة تكريمٍ يَذْكرُونَ فِيها مَآثِرَها ، يَتسابقُ فيها الخطباءُ والشُّعَراءُ ؛ وجَمَعُوا بعضَ التبرُّعاتِ لإنْشاءِ تِلكَ الْحَفلةِ . وحينما قابَلوها لِيسْتأْذِنُوها فى إقامةِ حفلةِ تَكريم لها قالتْ لهم : «إنِّى لَمْ أَفْعَلْ شَيئاً أَستحقُّ عليه تكريماً أَو تَبجيلًا . وقد فعَلْتُ ما فَعَلتُ لِأُرْضى اللّٰهَ ، ولِأُريحَ ضميرى ونَفْسى وأَقُومَ بواجبى نحوَ الإنسانيةِ» .

فسأَلوها : وماذا نَفعلُ بالتبرعات الَّتى جُمِعَتْ لحفلة التكريم ؟

فأَجابتْ : تبرَّعُوا بها لِمُسْتشفى الأَمراض العَقليَّة أَو مَلجأٍ منَ الملاجِئِ ، أَو جَماعة مِنَ الجماعاتِ الْخيرية .

ومَع هذا كلِّه لم تَسْلَمْ آليسُ من النَّقدِ ، فقد

رُزِقتْ بِمَنْ يَكِيدُ لها منَ الحاسِدين . ويُسِيءُ الحكم عليها منْ رجالٍ حاقدين ، قساة القلوبِ ، ضَيِّقِي العُقول ، لا يُفكِّرون فى ضَعيفٍ أُو مَريضٍ ، ولَم يَكْتَفوا بِمُعارَضَتِها ، بَل أَخَذوا يوقِعون بهَا ، وَيَضَعُونَ فى طَريقِها العراقيلَ والصُّعوباتِ ؛ لأَنَّ الحسَدَ قد سَيْطَرَ عَلَى قلوبِهم ، وَالْحِقدَ مَلَكَ نفوسهم .

ولم تبالِ بمعارَضَتِهِم لها ، ولا بأَقوالهم عنها ؛ بل سارَت فى طريقها بكلِّ شجاعةٍ وإخلاص ؛ غيرَ مُكترِثة لِما يتَقوّلُه المُتَقوِّلون ، ويَدَّعيه الكاذبونَ الحاقِدُون . ولَقدْ قالتْ ذاتَ مرَّة : « إن المُعارضةَ تَزيدُني قوةً على قوة ، وتساعِدُنى فى أَن أُواصِلَ سَعيي ، وأَستمِرَّ فى طَريقى . فإن كَنتُ فى حاجةٍ إلى قوة فإنَّنى فى حاجة إلى المعارضَةِ » .

وَأَخيرًا بَعْدَ عِدَّةِ سَنَوات من عَمَلٍ مُتَواصل ، وَجِهاد مُسْتَمِرٍّ ، أَتَمَّتْ عَمَلَها العَظيمَ فى الإِصلاحِ الاِجتماعيِّ ، وَختَمت مشروعَها بنَجاحٍ مُطَّرِدٍ ؛ فقد

وَضَعت اقتراحاتٍ لتحسين حالِ المستشفيات وَالسُّجونِ وَمَلاجئ اليَتَامى ، ومَشا في ضِعافِ العُقول الَّذِينَ فَقَدُوا قوَاهُم الفِكريَّة ، وبَعدَ أَن كانَ ضِعافُ العُقول يُوضَعونَ فى أَغلال وسُجون غيرِ صحيةٍ ، ويُعَذَّبُونَ بكلِّ وسائلِ التعذيبِ ، أَصبحوا يَجدُونَ مُستشفيات فَسيحةَ الأَرجاءِ ، حَسَنَةَ الإِدارةِ ، توافرتْ فيها وَسائلُ الرَّاحةِ ، وحُسن المعاملةِ ، وأُحِيطوا بقلوبٍ جُبلت عَلَى الشفقةِ والرَّحمةِ ، فعُنِيَتْ بشئونِهم ، وتأَلَّمت لحالهم ، وَعامَلَتْهم مُعاملةَ بَنِى الإِنسانِ ، وأَولَتْهم كلَّ عطفٍ ورعاية ، بعد أَن لفظتْهم الطبيعَة ، وأَذَاقَتهم مَرارةَ الحياة ، فكانوا كالحيوان الكاسرِ .

لقد حَدثَ هَذا التغييرُ ، وذلك الإِصلاحُ بمجهودِ امرأَة واحدةٍ هى آلِيسُ . وبفَضلها أُصلِحَتِ الملاجئُ والمستشفيات والسُّجون فى أَمريكا ، ولكنها لم تَقْتَنِعْ بما قامَتْ به فى بلادِها ، فبدأَتْ تفكرُ فى إِصلاحِها فى

أَوْرُوبَّة ، فتركَت أَمريكا وسافَرتْ مُتَنقِّلةً بين ربوع أَوْرُوبَّة . ثم كتَبَتْ تقريرًا عمَّا رأَته في كلٍّ منها ، تقريرًا مملوءًا حقَائقَ مُحزنَةً تألَّمتْ لها الشُّعوبُ والأُممُ . وَبذلَت كل ما فى استطاعتها لمساعدةِ الملاجئ والمستشفَياتِ والسُّجونِ بأَوْرُوبَّةَ لِلعِنايةِ باليَتَامى وَالمرضَى وَالمسجُونين وَالمخبُولين .

ثم رجَعَتْ إلى أَمريكا بعدَ تلك الرحلة الطَّويلةِ الشَّاقةِ . فَبَدَأَت آلِيسُ تقومُ بعمَل آخرَ للإِنسانيةِ .

وَانتسبتْ إلى جَماعةِ الصَّليب الأَحمر ، وتقدمَتْ مع الممرِّضاتِ لتَمريضِ الجرحَى فى المستشفياتِ ، فعُيِّنَتْ رئيسةً للممرِّضات فى المستشفيات ، وَسارَت فى عَمَلِها الجديد بكلِّ شجاعةٍ وَإِقدامٍ ، كما كانتْ فى حَياتِها الأُولى ، وَأَخَذَتْ تلاحِظ الممرِّضاتِ ، وَترَاقِبُهنَّ ، فى أَدائِهن لواجِبَاتِهنَّ . وَكانَ من عَمَلِها أَن توزِّعَ الهَدايا الّتى تهدَى إلى المرضى . وَأَخَذَتْ

ترحَلُ رِحْلاتٍ طَويلةً فى البرِّ وَالْبحر ، تَنتَقِلُ من مُستشفى إلى آخرَ ، المعِناية بالمَرْضى . ولم تَذقُ للراحةِ طَعماً . وَكانت لا تَجِد لذةً إلا فى العَمل الإنسانىِّ ؛ كتَخفِيفِ آلامِ الْمَرضَى ، ومُساعَدةِ الأَشقياءِ ،وإسعادِ البائسين . فَمن يَستطيعُ أَن يقدرَ مَا قامَت به تلكَ المَرأَة من عَمَل جَليلٍ ؟ لقد قامَت بما قامَتْ به لا رَغبةً فى الرِّبح أَو فى الشُّهرة ، وَلكن حُبًّا لِلإِنسانيةِ المعذَّبة . وكانتْ تقومُ بالإِنفاقِ عَلَى نَفسِها منْ مالِها الخاصِّ . وَلمْ تَأْخذْ أَجرًا عَلَى أَىِّ عمل قامَتْ به . وَقد حَدَثَ أَنْ قدِّمَ لها مبلغٌ كبيرٌ من المال تَقديرًا لِخدماتِها فقالَتْ :

« إننِى لَنْ أَقبَلَ شيئاً من المال أَو غيرِهِ ، وَلَكنِّى أُحِبُّ رايةَ بلادى » . فأُهديَتْ إليها رايةٌ جميلةٌ نقِشَتْ عليها العِبارة التالية :

« تذكارٌ واعِترافٌ بالأَعمالِ الْجَليلة التى قامَتْ بها آليسُ للعِنايَةِ بالفقَراءِ وَالمساكينِ ، وإراحةِ المَرضَى

والجرحَى من بنى الإنسان ، ولمَجهوداتِها العظيمةِ الَّتى قامَتْ بها » .

•

وإن نظرةً واحدةً إلى ما قامَت به من أعمال نبيلةٍ تبيِّنُ أَنها كانتْ تعطِف كلَّ العَطفِ عَلَى جَميعِ المخلوقاتِ الشَّقيَّةِ البائسةِ ، ولَمْ تعنَ بالكائناتِ الإنسانيةِ فَحَسْبُ ، ولكنَّها عُنِيَتْ أَيضاً بالرِّفْقِ بالحيَوانِ ؛ فَفِى جهةٍ مُزدَحِمةٍ من الأَحياءِ الوَطَنيةِ أَقامَت مَشرباً يَشرَبُ منهُ الخيلُ والحيوان . فَحياةٌ كهذهِ الحياةِ لا وُجودَ لها ؛ فقد كانَتْ حَياة آليسَ للإِنْسَانيةِ ، وفى سَبيلِ الإِنسانيةِ . وهَبتْ حَياتَها لِسَعادَةِ الأَشقياءِ مِنْ بَنى الملاجئ ، وَالمُستشفَياتِ والسُّجون ، وفى تمريضِ المَرْضَى والجرحَى ، وفى العِنايةِ بالإِنسان ، والرِّفق بالحَيَوانِ . وتَتَجَلَّى عَظَمَتها الإنسانية إِذا وازَنَّا بَينها وبين غيرها ممن يعيشون لأَنفسهِم ، ولا يُفكِّرونَ إلاَّ فى أَنفسِهم . فَهىَ خالدةٌ بأَعمالها ؛ فقد عاشَتْ

لغيرِها ، وماتتْ وهى لا تفكرُ إلا فى غيرها . وأُعجِبَ النَّاسُ بنبلها وسُموِّها ؛ فكانت مِثالَ الرَّحمة . وشَكَر المُصلِحونَ لها عَطفها ورحَمتها .

أسئلة فى القصة :

(١) ماذا شكت آليس لعمتها ؟
(٢) ما الخطة التى رسمتها آليس ووافقت عليها عمتها ؟
(٣) صف عمل آليس اليومى منذ قدومها إلى عمتها ؟
(٤) ما أول رسالة إنسانية أدتها آليس وكيف نفذتها ؟
(٥) صف القسوة وسوء المعاملة فى المستشفيات زمن آليس ؟
(٦) ماذا دفعها إلى التفكير فى أمر المرضى وزيارة المستشفيات؟
(٧) ما نتيجة تلك الزيارات التى قامت بها ؟
(٨) كيف كانتْ حال الملاجئ فى ذلك العصر ؟
(٩) ما الطريقة التى رسمتها لإصلاح الملاجئ والإكثار منها ؟
(١٠) ما الذى اتجهت إليه بعد إصلاح المستشفيات والملاجئ ؟
(١١) صف حال مرضى العقول فى مشافيهم ، ولم حزنت آليس من أجلهم؟
(١٢) هل تعجبك أعمال آليس ؟ وهل تحب أن تتبع طريقتها ؟

القصة الثالثة

المروءة

كان أَميرُ المؤمنين عُمرُ بن الْخطاب جالساً فى بعضِ الأَيامِ للقَضاءِ بينَ الناسِ والحكمِ بينَ الرَّعايا وعنده أَكابرُ أَصحابه مِنْ أَهلِ الرأى . فبينما هوَ جالسٌ إِذْ أَقبلَ عَليه شابٌّ وَسيمُ الطَّلعة ، وقد تعلقَ به شابَّان ، وجَذَباه مِن طَوقه ، وأَوقفاه بَينَ يَدَىْ أَمير المؤمنين عُمَرَ بنِ الخَطابِ رضىَ الله عنه . فنَظرَ أَميرُ المؤمنينَ إِلَيهما وإِلَيه ، وأَمرهما بالكَفِّ عنه ، وأَدناه وقرَّبهُ منه ، وقَال للشَّابَّين ، ما قصتكما مَعه ؟

فقالَا : يا أَميرَ المؤمنين ، نحن أَخَوَان شقيقان ، كانَ لنَا أَبٌ شيخٌ كبيرٌ ، حَسَنُ التدبيرِ ، مُعظَّمٌ فى القَبائل ، مُنَزَّهٌ عن الرَّذَائِل ، معروفٌ بالفَضائِل ،

رَبَّانا صِغارًا ، وأَوْلانَا وأَعطانَا مِنَنًا كِبارًا ، جمٌّ [١] المناقب ، كثير المفَاخِرِ .

فخرج يوماً إلى حديقة له ليتنزَّهَ بينَ أَشْجارِها ، وَيقطِفَ يانع [٢] ثمارها ، فقتلَهُ هذا الشابُّ ، وعَدلَ عَنْ طريقِ الرشادِ والْحِكْمَةِ . نسأَلكَ الْقِصاصَ والْعِقَابَ بما جَناه ، والحكم فيه بما أَمرَ اللهُ .

فنظرَ عمرُ إلى الشاب نَظْرةً مُرْهِبةً مُخِيفةً ، وقالَ لهُ : قد سمعت من هٰذين الْغلامَينِ الخطابِ ، فماذا تقولُ أَنتَ فى الْجواب ؟ وكان ذٰلك الْغلامُ ثَابِتَ الجَنَان ، والْعقْلِ ، جَرِىءَ اللِّسان ، قد خلعَ ثيابَ الهَلَع [٣] ، ونَزعَ لباسَ الجَزعِ ، فتبسَّمَ وتكلَّمَ بأَفصحِ لسان ، وحيا أَميرَ المؤمنينَ بكلمات حِسان ، ثم قالَ : واللهِ يا أَميرَ المؤمنينَ لقد وعيت ما ٱدَّعياه ، وصَدَقَا فيما قالاه ، حيث أَخبَرا بما جرَى ، وكانَ أَمرُ اللهِ قَدَرًا

---

(١) كثير . (٢) ناضج . (٣) الجزع الشديد .

مَقدورًا . ولكنْ سأَذكرُ قصتى بينَ يَدَيْك ، والأَمرُ فيها إليكَ .

أنَا يا أَميرَ المؤمنين من صميمِ العربِ العَرباء ، الذين هُم أَشرفُ مَنْ تَحتَ السماء . نَشَأْت فى منازل الباديةِ ، فأَصابَتْ قومى سودُ السنينَ العادية . فأَقبلتُ إلى هذا البلدِ ، بالأَهلِ والمالِ والولدِ ، وسلكت بعضَ طرُقها ، إلى المسير بينَ حدائقِها ، بنِياقٍ كَريماتٍ لدىّ ، عَزيزات علىَّ ، فيهنَّ جَمَلٌ كريمُ الأَصل ، مَليحُ الشكل ، يمشى بَينهنَّ كأَنه مَلِكٌ عليه تَاجٌ . فندَّت بعض النيَاق إلى حديقةِ أبيهم ، وقد ظَهرَ من الحائط شَجرُها ، فتناوَلته بمشفرِها ، فطردْتها عن تِلكَ الحديقة . وإذا شيخٌ من خلال الحائطِ قد ظهرَ ، وزفيرُ غَيْظهِ يَرمى بالشرَر ، وفى يدهِ الْيُمنى حَجَر ، وهو يتهادى كالأَسَدِ إذا حضَر ، فضربَ الْجَملَ بذلك الحجرِ فقتَله ؛ لأَنه أَصاب مَقتله . فلما رأَيت الْجَملَ

قد سقط بجانِبِي ، آنست أَن قلبي قد توقَّدَتْ فيه جَمَراتُ الغَضَبِ ، فتناولتُ ذلك الحجرَ عينَهُ ، وضَربته فكانَ سَبباً لِمَوْتِه ، ولقِيَ سوءَ مُنقلَبه ، والمرءُ مقتولٌ بما قتلَ به . وعنْدما أَصبْتُه بالحجَر صاحَ صيحةً عظيمة ، وصرخ صرخةً أَليمةً ، فأَسرعت بالسير من مَكاني . فأَسرَعَ هٰذانِ الشابان وأَمسكاني ، وإِليكَ أَحضراني ، وبين يَدَيْكَ أَوْقفاني .

فقال عُمَرُ رضِيَ اللهُ عنه : قد اعْتَرَفْتَ بما اقترفتَ[1] وَتعَذَّرَ الْخَلاص ، ووَجَبَ الْقِصاص ، ولَاتَ حينَ مَناص .

فقالَ الشابُّ : سمعاً وطاعةً لما حكم به الإِمَام ، ورضيتُ بما اقتضتْه شريعة الإِسلام ، ولكنْ لى أَخٌ صغير ، كانَ لهُ أَبٌ كبيرٌ . خصَّهُ قبل مَوتِه بمال جزيل ، وسلَّمَ أَمرَه إِلَيَّ ، وأَشهدَ الله عَلَيَّ ، وقالَ :

---

(١) ارتكبت من الذنوب .

هذا لأَخيك عِنْدَك ، فاحفَظْه جهدَك ، فأَخذْت ذلك المالَ منه ودفَنْتُه ، ولا أَحدَ يَعلمُ به إلَّا أَنَا ، فإن حكمتَ الآن بقتلِي ذهبَ المالُ ، وكنتَ أَنتَ السببَ فى ذهابه ، وطالبكَ الصَّغيرُ بحقِّه يومَ يقضِى اللهُ بينَ خَلقِه . وإن أنت أَخَّرتَنى ثلاثة أَيام ، أَقمتُ مَنْ يتولَّى أَمرَ الغلام ، وعُدت وافياً بالْعَهدِ . وَلى مَن يَضمَنُنى عَلَى هٰذا الكلام .

فأَطرَقَ أَميرُ المؤمنِين رأْسه ، ثم نَظَر إلى مَن حَضر وقال : مَن يَقومُ لى بضَمانِه ، والعودِ إلى مكانِه ؟ فَنظَر الغلامُ إلى وُجوه مَن فى المجلس ، وأَشار إلى أَبى ذَرٍّ دونَ الحاضرين وقال : هٰذا يكفُلنى ويَضْمَنُنى .

قال عُمَرُ رضى الله عَنه : يا أَبا ذَرٍّ ! أَسمعتَ هٰذا الكلامَ وتَضْمَنُ لى حُضورَ هٰذا الغلام ؟

قالَ : نَعَمْ يا أَميرَ المؤمنين ! أَضمنُهُ إلى ثلاثة أَيامٍ . فرضِىَ بذٰلك ، وأَذِن للغلامِ فى الانصراف . فلما

انقضتْ مُدة الإمهال ، وقَرُبَ وَقتها يزولُ أَوْ زالَ ، ولم يَحضر الشابُّ إلى مَجلِس عُمرَ ، والصحابة حوله كالنجوم حولَ القمرِ ، وأَبُو ذرٍّ قد حَضَر . والخصمان ينْتظِران ، قالا : أَينَ الغريمُ يَا أَبا ذَر ؟ كيفَ رُجوعُ مَن فَر ؟ ولكننا لا نبرَحُ مِنْ مكانِنا ، حتى تأْتيَنا بهِ للأَخذِ بثأْرنا .

فقال أَبو ذرٍّ : وحقِّ الملِكِ العَلَّام . إِن انقضت ثلاثةُ الأَيامِ ، ولَمْ يحضر الغلامُ ، وفيتُ بالضمان ، وسَلمتُ نفسى للإمام .

فقالَ عُمرُ رضىَ اللهُ عنه : والله إن تأَخرَ الغلامُ لأَقضِين فى أَبى ذرٍّ ما اقتَضَتْهُ شريعة الإِسلام .

فَهمَلت وفاضت عَبَراتُ الْحاضِرين ودمُوعُهم ، وارتفعَتْ زَفَراتُ الناظِرين ، وعظُم الضجيجُ . فَعَرَض أَكابرُ الصحابةِ عَلَى الشابَّين أَخْذَ الدِّيَةِ ، فأَبَيَا وامْتَنَعَا ، ولم يَقبَلا شيئاً إِلَّا الأَخذَ بالثَّأْرِ .

فبينما الناس يموجون ويضِجّون حُزْناً عَلى أَبى ذَرٍّ إذ أَقبَلَ الغُلام ، ووقَفَ بينَ يَدَى الإمام ، وَوجهُهُ مُشْرِقٌ يتهلَّل ، وبالعرق يتكلَّل ، وقالَ لَه : قد أَسلمت الصبىَّ إلى أَخوالِه ، وعَرَّفتُهم بجميعِ أَحواله ، وأَطَلَعْتهم على ما كان من ماله ، ثم اقتحمت هاجرةَ الحرِّ ، ووافيت وَفاءَ الحُرِّ . فتعجَّبَ الناسُ من صِدقِه وَوفائِه ، وإقدامِه عَلَى الموتِ واجترائِه ، فقال له بعضُهم : ما أَكرمَكَ مِن غلام ، وأَوفاكَ بالعَهدِ والذِّمام ؟

فقالَ الغلام : أَمَا تحققْتم أَنْ الموت إذا حَضَر لا ينجو منه أَحد ؟ وإنَّما وفيت كى لا يقالَ ذهبَ الوفاءُ منَ الناسِ .

فقالَ أَبو ذرٍّ : والله يا أَمير المؤمنين ! لقد ضمِنتُ هذا الغلام ولم أَعْرِفه من أَى قوم ، وما رأَيتُه قبلَ ذلك اليومِ ، ولكن لما أَعرض عَمن حضر وقصدَنى ، وقالَ هذا يضمَنى ويكفُلُنى ، لم أَستحسِن رَده ،

وأَبَت المروءَةُ أَن تخيبَ قصدَه ، ليسَ فى إجابةِ القصدِ من بَأْس ، كى لا يقالَ ذهبَ الفضل من الناس .

فعند ذلك قال الشابان : يا أَميرَ المؤمنين ! قد وهَبنا لهذا الشابِّ دمَ أَبِينا حيث بَدَّل الوَحشةَ بالإِيناسِ كى لا يقالَ ذهبَ المعروفُ من الناسِ ، واستبشَر الإِمامُ ، بالعفو عن الغلامِ ، وصدقهِ ووفائهِ بِالْعَهدِ ، واستكبَر مُروءَةَ أَبى ذرٍّ ، واستحسنَ تسابقَ الشابَّين فى اصطناعِ المعروف ، وأَثْنى عليهما ثناءَ الشاكِر ، وتمثلَ بقولِ الشاعر :

مَن يفعل الخيرَ لا يعدمْ جوازيه

لا يذهب العرفُ بين اللهِ والناسِ

ثم عرَض عليهما أَن يصرِفَ إليهما ديةَ أَبيهما من بَيت المالِ ، فقالا : إنا عفونا عنه ابتغاءَ وجه اللهِ الكريم المتعالِى . ومَنْ نيتُه كذا لا يتبعُ إحسانَه منًّا ولا أَذى .

(ا) أسئلة فى القصة :

(١) ماذا شكا الشابان إلى عمر ؟ ولماذا قتل الشاب الآخر أباهما ؟

(٢) بماذا قضى عمر ؟

(٣) من ضمن ذلك الشاب القاتل ؟ وهل كان يعرفه ؟

(٤) لماذا ضمن أبو ذر شخصاً لا يعرفه ؟

(٥) متى حزن المسلمون على أبى ذر ؟ وهل طال ذلك الحزن ؟

(٦) لماذا رجع الشاب القاتل ؟

(٧) ماذا كانت نتيجة رجوعه ؟

(٨) من أعجبك من أشخاص هذه القصة ولماذا ؟

(ب) أكمل الجمل الآتية بوضع كلمات مناسبة فى الأمكنة الخالية منها :

(١) كان لنا أب شيخ . . . حسن . . . معروف . . .

(٢) تبسم الشاب ، وتكلم بأفصح . . . وحيا أمير المؤمنين بكلمات . . .

(٣) أسرع هذان الشابان و . . . وإليك . . .

(٤) الصحابة حول عمر . . . كالنجوم حول . . .

فهرس الكتاب

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٥

المكتبة الحديثة للأطفال

المجموعة الأولى

لتلاميذ من سن ٨ سنوات فأكثر

(١) يوم سعيد (٢) الطفلان اليتيمان (٣) الراعي الأمين
(٤) النمر الأسود (٥) جميلة والوحش (٦) زوجة الأب
(٧) الأميرة الصامتة (٨) السمكة الذهبية (٩) الدجاجة الخائفة
(١٠) العصفور المغرور (١١) القرش الضائع (١٢) الصندوق الزجاجي
(١٣) الأميرة الحسناء (سنوهويت) (١٤) راعية الإوز (١٥) الأبناء الثلاثة
(١٦) البنت النبيلة (١٧) لعبة الأميرة (١٨) القصر الذهبي
(١٩) المصباح الأزرق (٢٠) الابن النبيل (٢١) الحمامة النبيلة
(٢٢) شهربان الصغير (٢٣) البنت الوحيدة (٢٤) الصديقات الثلاث
(٢٥) القلم الذهبي الجديد

المجموعة الثانية

لتلاميذ من ١٠ سنوات فأكثر

(١) بنت قاطع الخشب (٢) سيف العدالة (٣) الحظ السعيد
(٤) مثال الرحمة (٥) الشاب الوفي (٦) الأبناء جواهر الأم
(٧) الأميرة المدبرة (٨) حارسة الورد (٩) البطل الشجاع
(١٠) الأمير شفيق (١١) الفيلسوف الزاهد (١٢) الوطنية الصادقة
(١٣) زهرة السنط (١٤) الجندي المجهول (١٥) حلم يتحقق
(١٦) الفارس النبيل (١٧) تحرير الوطن (١٨) الأمير حسن
(١٩) الموسيقيون الثلاثة (٢٠) تأديب الأميرة (٢١) الشاب الشجاع
(٢٢) الأخ الأصغر (٢٣) النظام سبب النجاح (٢٤) الضعيف يغلب القوى
(٢٥) الصبر سبيل النجاح

٦ قروش ج. ع. م.	٦٠ فلساً في العراق والأردن	٨٤ فرنكاً في المغرب
٤٨ ق. ل	٦٠ فلساً في الكويت	١٤و٠ ريالا سعودياً
٦٠ ق. س	٧٢ مليماً في تونس	١و٢ شلناً } في البلاد
٦٠ مليماً في ليبيا والسودان	٨٤ فرنكاً في الجزائر	٠.١٧ دولاراً } الأخرى